الاتجاه الأثری فی المیزان، دراسة خاطفة جامعة

محمدعلی لسانی فشارکی*

الملخص

للتفسیر الأثری فی عالمنا الإسلامی ولا سیما فی عالم التشیع، تاریخ طویل جدیر بالدراسات المتأنیة، وکل واحد منّا یعرف التفسیرین الأثریین الشیعیین المشهورین، أحدهما للسید البحرانی وهو البرهان، وثانیهما للشیخ الحویزی وهو نور الثقلین، وکلاهما من أعلام الطائفة فی القرن الحادی عشر. وطال بعدهما الانتظار، وزاغت الأبصار طوال ثلاثة قرون أو أکثر، حتی طلع نجم ثالث فی سماء التفسیر الأثری الشیعی، وبرهن بظهوره للبرهان، وبهر بنوره نورَ الثقلین، ألا وهو المیزان فی تفسیر القرآن لمفسره الکبیر السید الطباطبائی رحمة الله علیه. وکاتب هذا المقال لم یعن بشئ إلا إظهار هکذا الظاهر، وإیضاح هکذا الواضح، الذی ربما یعد من القضایا التی قیاساتها معها، وهو ـ کما قال الأولون ـ کالشمس فی رابعة النهار؛ نظرا إلی أهمیة الموضوع بالنسبة إلی ما قد أضیف إلی صاحب المیزان ومؤلَّفه، منذ بزوغ هذا النیّر الأعظم فی الأفق الأعلی، والسماء العلیا لتفسیر کتاب الله الأکبر، وإلی ما قد قیل فیه وسوف یقال.

الکلماتالدلیلیة: المیزان، العلامة الطباطبائی، التفسیر القرآنی للقرآن، التفسیر الأثری، مناهج التفسیر، التفسیر الموضوعی.

*. عضو هیئة التدریس بجامعة آزاد الإسلامیة فی کرج.

تاریخ دریافت: ۱۳۸۸/۶/۱ ش تاریخ پذیرش: ۱۴/ ۹/ ۱۳۸۸ ش

المقّدمة

الحمدلله والسلام على عباده الذين اصطفى، لاسيما محمد المصطفى وآله المصطفين. ما يقال لک أيها القارئ الكريم فى هذا المقال، إلا ما قد قيل من قبل، وسبق أن كان قيد الطبع منذ سنين، فى كتاب العلامة الطباطبائى رحمةالله عليه، ذلک الكتاب القيم الخالد، الميزان فى تفسير القرآن، ومقدمته الموجزة الجامعة، الفاصلة المفصلة الكافية، التى هى ميزان الميزان بل ميزان الموازين، فى كل ما يتّصل بترجمة كتاب ربّ العالمين وتفسيره، سواء للمسلمين وغير المسلمين فى أنحاء العالم، أجمعين.

لقد برز وبرع الميزان فى مجالس أهل القرآن ومدارسهم، واستقر فى مستقره الأيمن فى بيت التفسير المعمور، منذ أن كان فريداً يتيماً كالدرّ المنثور، ورقيماً مقيماً فى الرّقّ المنشور، وكاد زيته يضئ من قبل أن يرجى له نور. وفور توفّر صحائف الميزان فى أيدى الأعادى والخلان، بدأ البادئون، وأنشأ الناشئون ونشر الناشرون، حول الميزان، وموازينه فى مختلف الشؤون، فمنهم من اتهمه بخرق إجماع المفسرين، ومنهم من آخذه بمآخذ المتفلسفين، ومنهم من أشاد به كتفسير جامع مهيمن على جميع تفاسير الماضين، ﴿وكل فى فلک يسبحون﴾ (يس، ۴۰) أو كما أبان وبيّن مولانا جلال الدين صاحب المثنوى المعنوى: لايبحث أحد عما خفى من قولى عن طريق أسرارى وإعلانى، بل كلٌّ يصادقنى على ما ظن بى، وأحب أن أكون كذلک! (بلخى، ۱۳۸۷ش: ۳)

والقول الفصل والظنّ الراجح فى جنب ما ظنّه المتقدّمون والمتأخرون، ما صدر مباشرة عن صاحب كلّ كتاب فيما يتّصل بكتابه وعن صاحب كلّ رأى فيما يتّصل برأيه. وعلى هذا، عنى مؤلف هذا المقال بحسّ نبض الميزان على يد صاحبه اليمنى، وحلّ لغزه بما ألقى صاحبه فى مطاويه من المغزى، وأصدق القول عن هذا المقال، إنه ليس لمؤلفه فيه مقال إلا ما كتب السيد السند الحبر العّلامة، وقال. وليس له إلا النقل والاقتصار عليه بحكم العقل. والآن قد آن الأوان لأن نشرع فى المقصود بعون الملک المعبود، وهو الرحيم الرحمان المستعان.

أولا، خلفيّة البحث

وهى طبعاً كل ما ألقى وكتب وقيل، حول الميزان ومنهج مفسره المفضال، من الغثّ

والسّمين، والخفيف والوزين، فى حياة العلامة الأولى، وحياته الأبدية الأخرى، وكل ما جرى وأجرى فى الحوزات العلمية والجامعات من جهة، وما كتب من كتب ورسائل، وألقى من دروس ومحاضرات فى التفسير الأثرى، كمنهج من مناهج التفسير بعامة. وفى التفسير الأثرى الشيعى بخاصة، من جهة أخرى ولايرى راقم هذ السطور أىّ جدوى فى أن يسود صفحات عديدة، بعدٍّ التصانيف، وسرد التكاليف، قائمة فى قوائم، وفهرسة فى فهارس.

ثانياً، نظرة العلامة الخاصة إلى تفسير القرآن وتطوره

إن لتفسير القرآن كريم، كما ينظر إليه العلامة الطباطبائى رحمة الله عليه تأريخين: تأريخ عام، وهو ما اعتاده الباحثون، ومازالوا ولايزالون، يكتبون ويدرسون، ويعلّمون ويدرّسون فيه كتأريخ التفسير والمفسّرين؛ تأريخ عظيم، جاء بتراث عظيم؛ بيد أن العلامة لاينظر إليهما بهاتيک النظرة المعتادة، ويصرح بما يفصل بين ما يراه ويراه الآخرون، حينما يقول بكلّ صراحة: «إن العناوين الأخر كالبحث والتنقير والتطبيق، أجدر بذلک من عنوان التفسير.» (الطباطبائى، ج١، لاتا: ۴ و ۶)

أما تاريخ التفسير الخاصّ، فالعلامة هو القائل فيه فى مقدمته الموجزة للميزان: «والمراد بهم [أى مفسرى الصحابة] غير علىّ عليه السلام فإن له وللأئمة من ولده خبر آخر سنتعرّض له.» (المصدر نفسه، ج١: ۴) فيا ترى، ما هذا الخبر الآخر وما هذا النبأ العظيم؟ الأحرى أن لا نعجل وأن نصبر ـ ولانتقدم بين يديه ـ حتى يخرج إلينا ويخبرنا بنفس الخبر ولاينبّئک مثل خبير.

إن صاحب السيادة فضيلة السيد العلامة، رضوان الله تعالى عليه ـ قد أوفى بعهده فى نفس المقدمة دون أن يطيل الكلام بلا طائل، إلا أنه أولى بما أوجب عليه المصطلح والمتلقّى العلميّين، وانتهى إلى بيان أن الصراط المستقيم فى فهم القرآن، وتفسيره، والذى لايجوز العدول عنه ولا الخروج منه، القرآن بالقرآن، ونستوضح معنى الآية من نظيرتها، بالتدبر المندوب إليه فى نفس القرآن، ونشخّص المصادر ونتعرفها بالخواص التى تعطيها الآيات.» (المصدر نفسه، ج١: ١١) وهذا هو الوازع لكثير من من أهل العلم، أن يعترفوا على تفسير العلامة

للقرآن الكريم فى الميزان الشريف، ويعرفوه ويشيدوا به «مدرسة تفسير القرآن بالقرآن» وهذا هو الصحيح، ولكن هل يغتفرن فى مثل هذا أن نأخذ بكلام العلامة الكبير فى مقدمته على كتابه، ونترک سائر كلامه فى مطاوى الكتاب نفسه، يسمح لنا ويسمع منا، أن نقول كما حكى الله سبحانه عن أعدائنا الألدّاء: ﴿نؤمن ببعض ونكفر ببعض﴾

أرأيت أن الروح العظيم والقلب السليم لسماحة سيد السادة، العلامة الطباطبائى قدس سره يرضى عنا ولايشكو عند الله ورسوله والأئمة الهداة المهديّين، أن نأخذ بعض كلامه ونترک البعض الآخر؟ أو أن نأتى ببعض بيانه فى كتبنا ورسائلنا، ونأتى نحن بتمام البيان دونه؟! هذا ما فعله الكثيرون غفلة أو تغافلاً وجهلاً أو تجاهلاً، تجاهل العارفين وتغافل العالمين.

ثالثاً، مختبأ المشكلة ومفترق الطرق

هذا البيان المبين، الذى صدر من بنان قلم العلامة الرصين، وتصدر واستوى فى أعلى علّيين، هو بنفسه ما أغفل من غفل أو تغافل ـ وأغرى من جهل أو تجاهل ـ عن تمام الصحيفة وجملة الحقيقة، فيما يتصل بما يعتقد، ويعلن، ويخبر عنه العلامة، بالنسبة إلى كيفية اعتصامه بحبل الله المتين، ومنهج تفسيره لكتاب الله.

بيان ذلک، أن العلامة صرّح فى بداية تقديمه لتفسير الميزان، أنه أوجز فيها وأجمل، وما أسهب ولا فصل. (المصدر نفسه، ج١: ۴) وهو إذ يقول هذا ويصّرح هكذا فى البداية، يشير إلى المستفيدين من إفاداته فى مدرسة الميزان والمستسقين من فرات علمه الذى منّ عليه العليم المنّان، أن يلتمسوا تفاصيل هذا الإجمال، فى مطاوى الميزان، لاسيما فى مظان العناية الخاصة بشأن هذا الإيجاز، وإن يطلبوا منه نفسه الإتمام، والإكمال، لا أن يأخذوا من العلامة العنوان، ويضعوا من عند أنفسهم ويصنعوا ما يأملون، ويعنونوه بذاک العنوان، ويضيفوا إلى العلامة مايعنون استناداً بأن منه ـ أعلى الله مقامه ـ العنوان!

أو ليس نفس هذا العنوان «تفسير القرآن بالقرآن» أو «التفسير القرآنى للقرآن» يدلى به البعض من الذين يشاقون الرسول والمؤمنين ويتبعون غير سبيل المسلمين، استنادا بآيات مفسّرات بآيات أخر من القرآن الكريم؟!

أو ليس الأكثرون ممن يتستّر بستار تفسير القرآن بالقرآن، ويختبئ خلف هذا النقاب، يتفوهون بمبدأ تفسير القرآن بالقرآن بمثابة «كلمة حق يراد بها الباطل»؟ وعلى حد التعبر المنسوب إلى مولى الموحّدين على بن أبى طالب عليه الصلاة والسلام فى موسوعة نهج البلاغة؟ (يراجع أيضاً لبحث بديع فى نوعه! مباحث فى علوم القرآن القرآن يفسّر بعضه بعضا ٢٩٩-٣١٢؛ وللمتقدمين فى هذا البحث: الزركشى، ١٩٧٢م، ج٢: ١٧٥؛ السيوطى، ١٩٦٧م، ج٣: ٢٠٠)

رابعاً، التفسير بالرأى عند العلامة الطباطبائى (قدّس سرّه الشريف)

للعلامة الطباطبائى مباحث عدة يذيّل بها تفسيره فى الميزان للآيات السابعة إلى التاسعة من سوره آل عمران، منها مبحث خاص بـ«التفسير بالرأى» جامع لما رواه الفريقان مشتملاً على عبارة «من فسّر القرآن برأيه» أو ما فى معناه، قائلاً فيه: « ...الإضافة فى قوله(ص): «برأيه» تفيد معنى الاختصاص، والانفراد، والاستقلال، بأن يستقلّ المفسّر فى تفسير القرآن بما عنده من الأسباب فى فهم الكلام العربى، فيقيس كلامه تعالى بكلام الناس.... والبيان القرآنى غير جار هذا المجرى.... فلايكفى ما يتحصل من آية واحدة بإعمال القواعد المقررة فى العلوم المربوطة فى انكشاف المعنى المراد منها، دون أن يتعاهد جميع الآيات المناسبة لها، ويجتهد فى التدبر فيها... .» (الطباطبائى، لاتا، ج٣: ٧٦)

ويستمرّ العلامة باحثاً وهو يقول: «فالتفسير بالرأى المنهىّ عنه، أمر راجع إلى طريق الكشف دون المكشوف، وبعبارة أخرى إنما نهى عليه السلام عن تفهم كلامه [تعالى] على نحو ما يتفهم به كلام غيره، وإن كان هذا النحو من التفهم ربما صادف الواقع، والدليل على ذلک قوله (ص) فى الرواية الأخرى: من تكلم فى القرآن برأيه، فأصاب فقد أخطا! فإن الحكم بالخطأ مع فرض الإصابة، ليس إلا لكون الخطأ فى الطريق؛ وكذا قوله عليه السلام فى حديث العياشى: إن أصاب لم يوجر.» (المصدر نفسه, ج٣: ٧٧)

ثم يأتى بفصل الخطاب فيما يريد أن يلقيه لتلاميذ مدرسته التفسيرية، ويلقنه إياهم ويقول :«والمحصّل أن المنهى عنه، إنما هو الاستقلال فى تفسير القرآن، واعتماد المفسر على نفسه، من غير رجوعٍ إلى غيره، ولازمه وجوب الاستمداد من الغير بالرجوع إليه؛ وهذا

الغير ـ لامحالة ـ إما هو الكتاب أو السنة، وكونه هى السنة ينافى القرآن، ونفس السنة الآمرة بالرجوع إليه وعرض الأخبار عليه، فلايبقى الرجوع إليه والاستمداد منه فى تفسير القرآن إلا نفس القرآن.» (المصدر نفسه، ج٣: ٧٧)

ثم يؤكد ـ رضوان تعالى عليه ـ على أن التفسير بالرأى لايخلو عن "القول" فى الله وفى كلامه "بغير علمٍ" كما ورد فى الحديث النبوىّ: من قال فى القرآن بغير علمٍ فليتبوّأ مقعده من النار! كذلك، يؤكّد على أن التفسير بالرأى: «يؤدى إلى ظهور التنافى بين الآيات القرآنية من حيث إبطاله الترتيب المعنوى الموجود فى مضامينها، فيؤدى إلى وقوع الآية فى غير موقها، ووضع الكلمة فى غير موضعها... .» وبالجملة، يؤكد العلامة على أن التفسير بالرأى يؤدى: «إلى اختلاط الآيات بعضا ببعضٍ، ببطلان ترتيبها، ودفع مقاصد بعضها ببعض.... وهذا [هو] الذى ورد التعبير عنه فى الروايات بضرب بعض القرآن ببعض.» (المصدر نفسه، ج٣: ٨٠-٨١)

خامساً، تفسير القرآن بالقرآن فى مدرسة الميزان

ثم يختم العلامة بحوثه القيمة فيما يتصل بالآيات الثلاث من أوائل سورة آل عمران ببيان ردّ جامع وتعريفٍ بالغ، لتفسير القرآن بالقرآن فى مدرسته بحيث يشتمل على المبانى والأصول والقواعد لهذا المنهج التفسيرى الفذّ، الذى هو الصراط المستقيم فى تفسير النّبأ العظيم والقرآن الحكيم، وذلك بعد تقديم مقدمتين:

الأولى، «إن الطريق إلى فهم القرآن كريم غير مسدود، وإن البيان الإلهى والذكر الحكيم بنفسه هو الطريق الهادى إلى نفسه، أى إنه لايحتاج فى تبيين مقاصده إلى غيره، فكيف يتصور أن يكون الكتاب الذى عرفه الله تعالى بأنه هدى وأنه نور وأنه تبيان لكل شئ، مفتقراً إلى هاد غيره، ومستنيراً بنور غيره، ومبيناً بأمر غيره؟! ... .» وكما ورد عن أئمة أهل البيت (ع): من زعم أن كتاب الله مبهم فقد هلك، وأهلك.

والثانية: إن حديث الثقلين الصحيح، المروىّ بطريق متواترة عن جمّ غفير من الصحابة دالّ على حجية ظواهر القرآن، وحجية بيان أهل البيت (ع) فى تفسيره معاً، دون أن يفرّق بينها؛ فللقرآن الدلالة على معانيه، والكشف عن المعارف الإهية، ولأهل البيت (ع) الدلالة

على الطريق وهداية الناس إلى أغراضه ومقاصده.

والنتيجة، أن التفسير المعزوب إليه هو تفسير القرآن "من طريقه" مستدلا بدلالة أهل البيت (ع) على طريق تفسير القرآن، مستهدياً بهدايتهم إلى أغراض القرآن ومقاصده؛ والتفسير المنهيّ عنه تفسير القرآن "من غير طريقه" وهو التفسير بالرأى، وضرب القرآن بعضه ببعض، من غير استهداءٍ بهداية أهل البيت (ع) ومن غير استدلال من دلالتهم. (المصدر نفسه، ج٣: ٨٦-٨٧)

وفصل الخطاب، هو «أن المتعين فى التفسير الاستمداد بالقرآن على فهمه وتفسير الآية بالآية، وذلک بالتدرب بالآثار المنقولة عن النبى وأهل بيته صلى الله عليه وعليهم، وتهيئة ذوق مكتسب منها، ثم الورود؛ والله الهادى.» (المصدر نفسه، ج٣: ٨٧)

فكما أشرنا إليه آنفا، قد وصل العلامة الطباطبائى رحمة الله عليه بهذا البيان الواضح القديم، وأوصل تلامذة مدرسته التفسيرية إلى منهج تفسير القرآن بالقرآن، كما يعنيه ويعتقده؛ غير أنه ـ رضوان الله تعالى عليه ـ أوجز فيما كان حقه الإطناب والإسهاب، وأجمل فيما كان حقّه التفصيل والإيضاح، وهو بيان مبانى هذا المنهج وتأسيس أصوله، وإرساء قواعده، حتى لايرتاب فيه مرتاب، ولايريب فيه مريب، وحق القول إنه أتم هذا الأمر أحسن الإتمام، وأكمله غاية الإكمال، لكن ليس فى مقدمته للميزان الموجزة، بل فى مطاوى الميزان المفصلة، ومناحيه المختلفة المتنوعة، بحيث لايوجد فى كل الميزان البالغ إلى العشرين مجلّداً، عُشر ورقة لا ينحو نحو هذا المنهج سواءً فى أبحاثه الروائية، والقرآنية، والفلسفية، والعلمية.

ومستصفى المقال أن "تفسير القرآن بالقرآن" على حد تعريف العلامة الطباطبائى رحمه الله وتبيينه هو أن يبتدئ المفسر الباحث فى كل موضوع يريد أن يتوصل فيه إلى ما يقوله القرآن، بمطالعته واستطلاعه "فى الآثار المنقولة عن النبى وأهل بيته، صلى الله عليه وعليهم" حتى يتحصّل ويتهيأ له ذوق فيما يتصل بموضوع بحثه التفسيرى، ويحصل على ترتيب المسائل وترتبها ومواضع الكلم ومواقعها أولاً، ثم يرد بعد هذا التدرب والتدريب، وبهذه العقلية التابعة لحديث النبى والآل، وبهذه الفكرة المتخذة من مدرسة أهل البيت (ع) وعلومهم الإلهية النبوية إلى حوزة فهم القرآن الكريم وتفسير آياته وسوره، ثانياً مستمدا فى

هذا الفهم والتفسير بالقرآن نفسه، مفسرا الآية بالآية؛ وإلا، وفى غير هذه الصورة كان ملقياً نفسه بيده إلى التهلكة مهلكاً لغيره بإضلاله، وإغوائه، هاوياً فى مهواة التفسير بالرأى، ضارباً ـ من غير ترتيب وروية ـ بعض القرآن ببعض. وهذا يعنى أن الميزان فى تفسير القرآن عند للعلامة الطباطبائى رحمه الله، الذى لايحلّ ولايجوز العدول عنه، ولا الخروج عليه، إنما هو علوم أئمة أهل البيت (ع)، وتعاليمهم، وبالتالى يعنى أن كتاب الميزان فى تفسير القرآن إنما هو تفسير أثرى شيعى، لاغير وهو ثالث الثلاثة الكتب فى التفسير الأثرى فى عالم التشيّع بعد البرهان ونور الثقلين.

سادساً، مقدمة العلامة الطباطبائى رحمه الله، على تفسير نور الثقلين

إن خير الكلام ما قلّ ودلّ، ولا أقلّ ولا أدلّ على ما نريد قوله فى مختتم هذا المقال، وهو انتهاء تطور التفسير الأثرى الشيعى طول القرون، إلى "الميزان" الذى أحكمه وحكّمه العلامة الحكيم، والمفسّر الكبير، والمتحدث البارع، السيد السند الطباطبائى ـ رضوان الله تعالى عليه ـ من مقدمته المكتوبة بيمناه المباركة المثبتة فى مفتتح النسخة المطبوعة الدارجة من تفسير نور الثقلين، كما أثبت فى صحيفة العنوان، والتى كتبه فى ١٥ من ذيحجة الحرام سنة ١٣٨٢ق، والمرجو من القارئ الكريم أن لاينظر إليها كقول منقولٍ، بل كموضوع معقول الذى يجب التدبر فيه حق التدبر.

«اللهم لک الحمد على ما أنعمت علينا بكتابک الذى جعلته نوراً وفرقاناً، وأنزلته على عبدک ورسولک محمد صلواتک عليه وآله ليكون للعالمين نذيراً، ثم أتممت علينا نعمتک بالطاهرين من آله الذين جعلتهم خُزّان علمک، وحَمَلَة نورک، وأذهبت عنهم الرّجس ـ أهل البيت ـ وطهرتهم تطهيراً. اللهم صلّ على محمد وآله واهدنا بهم إلى كتابک الكريم، وصراطک المستقيم، ونوّر قلوبنا بنور التمسک بهذين الثقلين، اللذين لايفترقان إلى يوم لقائک، إنک رؤوف رحيم. أما بعد، فإنّ أحسن القول، وأجمل الحديث، ما أنبأ عن الحق، ولازم الصدق، وعمّ نفعه، وأمن ضرّه، ولم يأته الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وهو كلام الله العزيز والصحيح المأثور من حديث نبيه وآله. وكما حبا الله سبحانه هذه الأمة بنعمته، وأتمها،

أدام نعمته عليهم بما بعث فی کل برهة جماعة من رجال العلم، وحَمَلَة الحديث، على تحمّل کلّ مشقة فی حفظه، وبذل الجهد فی نقله، ونشر برکاته. هاتیک آیات العلم، لاتنسخ منها آیة إلا أتی الله بأحری منها، وهو القائل عزّ من قائل: ﴿ما ننسخ من آیة أو ننسها نأت بخیر منها أو مثلها﴾ ولایأتی الله أرضها ینقصها من أطرافها شیئاً إلا أوسع فی أرجاء سمائها أشیاء، وهو القائل جلّ وعزّ: ﴿والسماء بنیناها بأید وإنا لموسعون﴾ ومن أحسن ما جمعته أزمنة المجاهدة بعواملها، وخطّته أیدی التحقیق، بأنملها فی هذا الشأن ـ أو هو أحسنه ـ هو کتاب نور الثقلین لشیخنا الفقیه المحدث المبارع، الشیخ عبد علیّ الحویزی ثمّ الشیرازی، قدس الله نفسه، وروّح رمسه، الذی جاد به عصر أساطین الحدیث، وجهابذة الروایة، وهو النصف الأخیر للقرن الحادی عشر من الهجرة تقریباً، الذی سمح بمثل مولانا المجلسی صاحب البحار، ومولانا الفیض صاحب الوافی، وشیخنا الحرّ العاملیّ صاحب الوسائل، وسیدنا السید هاشم البحرانی صاحب البرهان، رضوان الله علیهم أجمعین، ولعمری، أنه الکتاب القیم الذی جمع فیه مؤلفه شتات الأخبار الواردة فی تفسیر آیات الکتاب العزیز، وأودع فیه عامة الأحادیث المأثورة عن أهل بیت العصمة والطهارة، سلام الله علیهم، إلا ما شذّ منها. ولقد أجاد فی ضبطها وترتیبها، والإشارة إلی مصادرها والجوامع المنقولة هی عنها، وبذل جهداً فی تهذیبها وتنقیحها؛ جزاه الله عن العلم وأهله خیراً، وهدانا بنور الثقلین، وأحیا قلوبنا بالعلم والیقین، آمین.» (العروسی، ۱۳۸۳ش، ج۱: ب و ج)

لاریب فی أن الناظر فی هذه المقدمة لهذا الکتاب یری ویعاین بحیث لایدانیه شک ولاارتیاب، أن العلامة الطباطبائی رحمه الله یری، ویعتقد أن المنهج الأوحد للتفسیر، هو التوفیق بین القرآن، والحدیث، والعمل التفسیری الصالح الصحیح، هو بیان وتبیین الموافقین بین الحدیث والقرآن، وهو ما یعنیه ویقصده بـ "المیزان ـ أی المعیار والملاک والقسطاس ـ فی تفسیر القرآن" عنوانا ومعنوَنا؛ وکذلک یری بعین البصیرة والاعتبار أن العلامة رحمةالله علیه فی هذه المقدمة الموجزة أیضا ـ صرح بجمیع ما کان یرید أن یقول به، ویلقیه علی تلامیذ مدرسته، درساً وبحثاً وإفادة وتدریساً، فی کلّ ما یتعلق بتأریخ التفسیر وتطوره ـ کما ینظر إلیه العلامة رحمه الله طبعاً ـ وفی کل مایراه واجباً علی کل من یرید أن یرد حوزة

تفسير القرآن العلمية، أو يحوم حول حماها، وينتفع بنفعه، وهداه ويأمن ضرّه والضلالة فيه.

لكنّ السيد العلامة رحمه الله يقتصر فى هذه المقدمة، ويتراءى أنه يتعمد هكذا الاقتصار، على المزايا دون الرّزايا، ومن الطبيعى أن يكون هكذا، وهو المقرظ لمحصل التفسير الأثرى الشيعى، ولاينبغى أن يحس منه حسيس التعريض؛ على أنه رحمه‌الله رأى ـ فيما يبدو ـ أى تعريض يتفوّه به مساوقاً لمدح نفسه، ونقضاً صريحاً لغرضه فى هذا التقريظ حيث إنه لايريد أن يشيد بما حباه الله نفسه إتماماً للنعمة بعد الإتمام، وإكمالا للكرامة بعد الإكمال، عندما وفّقه لتأليف البيان فى الموافقة بين الحديث والقرآن أولا، ومكّنه من تأليف الميزان فى تفسير القرآن ثانياً، والعارف تكفيه الإشارة.

والنقيصتان اللتان يعانى منهما التفسير الأثرى الشيعى، لا بعد ما ألّف البرهان، ونور الثقلين فحسب، بل قبلهما، ولايزال يقاسيهما إلى الآن، وقد أجاد رحمه الله فى رفع كلتا النقيصتين، بتأليف البيان والميزان، وأتى فى كل ما يتعلق بهما بالقول الفصل، وفصل الخطاب، هما البيان والتبيين لوحدة كتاب الله وعترة رسول الله واتحادهما، وامتناع افتراقهما أولا، وهو الحقل الذى أحسن فيه وأصاب، بما تبين من الموافقة بين حديث النبى(ص) وأهل البيت (ع)، وسنتهم، والكتاب، وبما أسّس مدرسة لتفسير القرآن بالقرآن، مبتينة على المبانى المأخوذة، والأصول المتخذة، والقواعد المعتمدة من علوم أهل البيت (ع) ومعارفهم؛ وثانيا البيان الحكمى المحكم، والتبيين الفلسفى المعقول، لتراث أهل البيت (ع) الحديثى المنقول، حتى يتبين لكل مسلم فى عالم الإسلام، أن كلّ ما قاله أئمة الشيعة الإمامية، وقالوا به، هو تفسير القرآن نفسه، بل هو نفس القرآن؛ ويتسنّى لكلّ باحث وناظر فى العالم الإنسانى أجمع، أن يعلم علم اليقين أن مايعتقده ويقول به المسلمون الشيعة، ليس مما يدفعه العقل ولايقبله العلم، بل إن علماء أهل البيت (ع) أئمة الشيعة، هم علماء المعقول قبل أن يكونوا علماء المنقول، وليس شأنهم شأن أكثر الدّعاة، والرّواة فى تاريخ الإسلام والعالم الإسلامى؛ وبالتالى، أن يتعرّفوا على علوم أهل البيت(ع) وتعاليمهم، كتفصيل لكل شئ كما هو الشأن بالنسبة إلى القرآن.

سابعاً التفسير الأثرى الشيعى سابقاً ولاحقاً

بقى علينا أن نقرر، أن هذه النهضة الناهضة، بنفس هاتينک الاتجاهتين، وهذه الحجة

القائمة الميهنمة على هاتين الجهتين التى تعّرفتا فى هذا المقال، وبحقّ أن العلامة الطباطبائى رحمه الله كقائد، وبان، ومؤسس لها قدسبق أن تكونت وابتدأت باهتمام بالغ من ناحية شيخ الطائفة أبى جعفر محمد بن الحسن الطوسى ـ أعلى الله مقامه ـ فى كتابه الذى أسماه التبيان الجامع لعلوم القرآن، وبدّل اسمه الناسخون والناشرون، حتى اشتهر باسم التبيان فى تفسير القرآن، أو تفسير التبيان، (يراجع: الطوسى، لاتا، المقدمة: ۵) وتخطت خطوات سريعة بناءة على يد أمين الإسلام الشيخ أبى علىّ فضل بن الحسن الطبرسى ـ قدّس الله سرّه ـ فى كتابه الذى سماه مجمع البيان لعلوم القرآن، وأشهره ـ أيضاً ـ الناسخون والناشرون، باسم مجمع البيان فى تفسير القرآن، أو تفسير المجمع، أو تفسير الطبرسى، (يراجع: الطبرسى، ۱۹۸۶م، ج۱: ۵ – ۱۶) واتسعت غاية الاتساع، وأكملت واعتلت فى المنهل العذب الصافى تفسير القرآن للمولى محسن الفيض القاسانى، (يراجع: الصافى، لاتا، المقدمة وبخاصة: ۳) حتى تصدت لها، وأرسى كرسيها، واستوى على عريشها، علامة عصرنا الحاضر "السيد محمد حسين الطباطبائى" كما كان أحب إليه أن يقصّر فى تسميته، وتلقيبه لفظا وكتباً، عليه.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

نهج البلاغة.

البحرانى، العلامة السيد هاشم الحسين. لاتا. *البرهان فى تفسير القرآن*. تصحيح: محمود بن جعفر الموسوى الرزندى، ويحيىالله‌بن كريم‌الله التفرشى البازرجانى. طهران: آفتاب.

بلخى، مولانا جلال‌الدين محمد. ۱۳۸۷. *مثنوى معنوى*، بر اساس نسخه نيكلسون، به‌كوشش سعيد حميديان. چاپ چهارم. تهران: قطره.

الذهبى، محمد حسين. ۱۹۷۶م. *التفسير والمفسرون*. الطبعة الثانية. بيروت: دارالكتب الحديثة.

الزركشى، الإمام بدرالدين محمد بن عبدالله. ۱۹۷۲م. *البرهان فى علوم القرآن*. تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم. الطبقه الثانية. بيروت: دار المعرفة.

السيوطى، جلال‌الدين عبدالرحمن. ۱۹۶۷م. *الإتقان فى علوم القرآن*. تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم. القاهرة: لانا.

الصادقى الطهرانى، محمد. ۱۴۱۹ق. *البلاغ فى تفسير القرآن بالقرآن*. الطبعة الأولى. قم: إسماعيليان.

الصالح، صبحی. ۱۹۸۳م. *مباحث فی علوم القرآن*. الطبعة الخامسة عشرة. بیروت: دار العلم للملایین.
الطباطبائی، العلامة السید محمد حسین. لاتا. *المیزان فی تفسیر القرآن*. قم: جماعة المدرسین فی الحوزة العلمیة.
الطبرسی، أمین‌الإسلام الشیخ أبوعلی‌الفضل‌بن الحسن. ۱۹۸۶م. *مجمع البیان لعلوم القرآن* (مجمع البیان فی تفسیر القرآن). تحیق وتعلیق: *السید هاشم الرسولی المحلاتی*. الطبعة الأولی. بیروت: دار إحیاء التراث العربی.
الطوسی، شیخ الطائفة الشیخ أبو جعفر محمد بن الحسن. لاتا. *التبیان الجامع لعلوم القرآن* (التبیان فی تفسیر القرآن). تحقیق: أحمد حبیب قصیر العاملی. بیروت: لانا.
العروسی الحویزی، العلامة الشیخ عبدالعلی بن جمعة. ۱۳۸۳. *نور الثقلین*. تصحیح وتعلیق: السید هاشم الرسولی المحلاتی. الطبعة الثانیة. قم: المطبعة العلمیة.